مشاكل الجامعة

ترقيات المدرسين بالجامعة

للأستاذ محمد رجب البيومي

ينظر المهيمنون على شؤون التعليم نظرة إشفاق على المستوى الجامعى الذى أخذ ينحدر شيئا فشيئا — فى مختلف كليات الجامعات — حتى أوشك أن يهبط إلى الحضيض ، وتتضح هذه الحقيقة المؤلمة حين تجلس مع طالب فى السنة الأولى بإحدى كليات الجامعة ، وطالب آخر قد أتم سنواته الجامعية ، فلن تجد فرقا واضحا بين التفكير العلمى لدى الطالبين ، فكلاهما يشترك مع طلبة المدارس الثانوية فى تلقين الدروس ، وكتابة المذكرات وحشو الذهن بالمواد المتزاحمة ، دون أن تتسع لديه البصيرة النافذة ، والتميز الدقيق ، ودون أن تفيده الجامعة ما ينبغى أن يتمتع به من التفكير السليم ، والاستنتاج العلمى المرتكز على قواعد من البحث والتعليل ، ودون أن تخلع عليه الجامعة روح الابتكار والشمول المستوعب لدقائق الموضوع ، مما يدفع بك إلى التساؤل عن سر هذه النكبات المتلاحقة التى أخذت تترصد الجامعيين ، وتسد أمامهم الطريق

ونحن نلق التبعة دائما على السياسة الحزبية التى صرفت الطلاب عن واجبهم العلمى ، وقذفت بهم إلى لجج من الفوضى والاستهتار ، وهذا حق لا مرية فيه ، ولكن الحق أيضا أن نذكر نصيب الأساتذة فى هذه التبعة الفادحة ، فلا نجبن عن إعلان دورهم الرئيسى فى تمثيل هذه المسرحية الحزينة ، دون أن نقيم أى اعتبار لغير الصدق الذى لا يعدم النصير !

لقد كانت جامعة فؤاد الأول منذ أعوام حافلة بذخيرة ثمينة من الأساتذة الذين يتبوءون مناصبهم العلمية عن جدارة واستحقاق ، وكانت مع ذلك تستقدم من أساتذة أوربا أعلاما يدوى صيتهم العلمى فى أنحاء العالم ، فيقومون بتوجيه الطلاب أكمل توجيه ، وينمو على أيديهم غرس زاهر يؤتى الثمر ويمد الظلال ، ثم أنشئت جامعتا فاروق وإبراهيم — وسينشأ غيرها من الجامعات — فأخذ ولاة الأمور يبحثون عن أساتذة يملأون الفراغ بجدارة مشرفة ، فلا يجدون غير أساتذة الجامعة الأولى ، فتخطفتهم الجامعات تخطفا غير عادل ، دون أن يكملوا النقص الشاسع الجديد ، واضطر المهيمنون على الجامعات أن ينشروا الإعلانات فى الصحف باحثين عن مدرسين أو مساعدين يقضون حاجات المعامل والفصول والدرجات ، وكأنهم يبحثون عن مبنى « للبيع » أو شقة للايجار ، وهم معذورون فى ذلك مهما ثلمت كرامة التدريس الجامعى ، فالمضطر يركب الصعب فى أتعس الأحوال ! وحين لم يجدوا من تتوفر فيهم الكفايات المنشودة ملأوا الأماكن بالمعيدين وأضرابهم من ذوى الحداثة فى السن والتوجيه ، وهؤلاء كانوا منذ شهور يتلقون الدروس ، فأصبحوا بمعجزة خارقة مدرسين يقومون بالشرح والتفهيم ، ولن ننكر ما قد يكون لدى القليل من النضوج والاستعداد ، ولكن الكثرة الغالبة فى حاجة ملحة إلى التمرن بالمدارس الثانوية من

فما أروع المعانى التى احتوتها هجرة الرسول ؛ وما أحرانا بأن نبعثها فى حياتنا الراهنة فنحققها ونستمد منها القوة والاعتبار . بل ما أجدرنا بالتعاون على قهر العدو الذى يكيد لنا ، وأى كيد أدهى وأمر من تشريد أهل فلسطين الذين أخرجوا من ديارهم ظلما وضيما ، مستجيرين من دخيل غاصب أصبح بعون الطغاة الناشمين صاحب الدار ؟ فهل يتاح لهؤلاء المهاجرين المقهورين رجعة إلى ديارهم وبلادهم ؟

من هنا ينبغى أن نفكر فى ذكرى الهجرة بما صنع النبى بالنازحين واللاجئين ، وأن نذكر أن عودتهم ونصرتهم تحققها كلمة الرسول وتعاليمه إن اتبعناها وما كانت لترضى بقبول الظلم والهوان ، فإن رسالته وضحت كل شأن وقالت بأن لا نقيم على ضيم وخذلان ، ولا نستخذى لغاصب لئيم ، ففى هذه الذكرى يجب على كل بيت ومجتمع ، ألا يقر له قرار إلا بالعمل على انتزاع شوكة الطغيان والعدوان من دنيانا التى ألمت بها أشتات الخطوب والمحن ؛ حتى إذا مرت الذكرى بعثت الهمم وسددت الرأى والخطى ، وفتحت أعين الرجال والنساء على عهد جديد فى هذا الشرق الذى يستعيد اليوم مجده ويتحرر من أغلال الظلم والفساد

القاهرة وداد سكاكيني

جهة ، وإلى البعثات العلمية من جهة أخرى ، ليجدوا فى عقولهم ما يقدمونه إلى الطلاب فى مختلف المواد ، بل إن الكثير من هؤلاء المبعدين يتملقون زملاءهم الطلاب — سترا للضعف العلمى بما يعود بالخيبة والإخفاق ، وهذه جناية التقليد الضرير الذى يأخذ بالقشور دون اللباب ! وليت الجامعات واصلت الاستعانة بأساتذة أوربا فى الكليات العملية — على وجه الخصوص — فهى فقيرة إلى الأكفاء من الأساتذة ، بل وإن التسرع العاجل قد حال دون الانتفاع بذوى الكفاية والمواهب ، دون أن نعرف سببا منطقيا ينأى عن العواطف والنزوات ، مع أن جامعات الغرب — فوق تقدمها الملموس — تستقدم من أساتذة الشرق من ترى فى انتدابهم النفع والسداد ، فلم لا نقلدها مخلصين فى ملء هذا الفراغ ؟ أكبر الظن أننا نثق إلى حد مضحك فى كفاءة المبعدين ، قانعين بالإعلانات المتكررة فى الصحف والمجلات

وأنت تنظر إلى مناصب الدولة عندنا فتجدها متخمة بأساتذة الجامعة السابقين من ذوى القدرات الممتازة ، فتتساءل عن هذا الفرار السريع من ميدان التربية والتدريس ، مع مانعلمه من حرص الأساتذة فى جامعات أوربا على التدريس بالجامعات رغم المغريات اللامعة ، وقد يكون المغنم المادى جزيلا خارج الجامعة ، أو يكون للمنصب الجديد بريق يؤخذ بالنفوذ والأبهة والجاه ، قد يكون هذا وذاك ، ولكن يجب أن نذكر أن ازدحام الجامعة بمن لا يصلحون للتدريس قد زين الفرار لأساتذتهم من ميدانهم الأصيل ، كيلا يجتمع الطيب والخبيث فى منزلة واحدة أمام الأنظار

وإذا كان لابد من الترقية لهؤلاء المبعدين ، ونظرائهم من المدرسين والمساعدين ، فعلى أى منوال تكون الترقية القريبة من العدالة والإنصاف ؟ لقد تطاحنت الآراء حول هذا الموضوع تطاحنا وصل صداه إلى الصحف والأندية ، وجاوز الحرم الجامعى بأميال ، ففريق يؤمن بأن الأبحاث العلمية هى الميزان الدقيق للكفاءة الممتازة والترقية العادلة ، وفريق يخالف ذلك مخالفة شديدة ، ويجهر بأن الأبحاث العلمية لا تصلح ميزانا عادلا للترقية فى درجات التدريس ، ولهذا الفريق المتحمس أدلته التى لا تخرج عن نقاط ثلاث

(١) أن التدريس ملكة مغايرة للبحث ، إذ قد يكون من لا يجيد البحث والتأليف مدرسا لامعا من أحسن طراز

(٢) أن الأبحاث العلمية ستكون طوفانا حافلا بالمكرر التافه من الآراء ، إذ لا يتسنى لكل مدرس أن يبتكر الطريف النافع ، فيلجأ إلى النقول الزائفة ، والتلفيق السخيف

(٣) أننا بتقديس الأبحاث نجحد الاكتشافات العلمية ، التى تستنفد الوقت الطويل للوصول إلى مخترع حديث ، أو علاج جديد ، وبذلك لن يتقدم العلم خطوة واحدة ، بل ربما رجع إلى الوراء

وقد تبدو هذه النقط الثلاث مقبولة عند النظرة الأولى ، ولكنا بعد التأمل الفاحص نجدها زائفة لا تستند إلى منطق صحيح ، وربما كان الهروب من التبعة الفكرية والاستقراء العلمى باعثا على اختلاقها وتصيد الأسانيد الموهومة لتدعيمها ، والجرى وراء الأقنعية المطلقة ، جريا يبعث على الدهشة والاستغراب ؛ فالنقطة الأولى التى تباعد ما بين البحث والتدريس صادقة بالنظر إلى تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية فقط ، فهم لا يحتاجون إلى العلم الزاخر والمادة الغزيرة ، بل يتطلبون المدرس الملم بالطرق الخاصة للتدريس ، وإن كان قاصر المادة محدود الاطلاع ، ليتمكن من تبسيط المعلومات وتيسيرها من طريق مختصر ، أما المدرس الجامعى فيجد أمامه طلابا فى مرحلة الشباب ، قد كمل نموها العقلى والجسمى والعاطفى ، وألموا بطائفة من المواد تساعدهم على استيعاب الأبحاث الجامعية ، وتهيئهم للبحث المتسع الأفق ، المتشعب النواحى ، القائم على أسس وطيدة من حرية التفكير وسلامة المنطق ، فهم فى حاجة إلى مدرس عالم مارس البحث العلمى ليشبع الرغبات النهمة ، ويفتح النوافذ الموصدة ، وبقدر مكانة الأستاذ العلمية يكون نجاحه وتوفيقه فى مهمته ، وإذا كنا نصادف فى القليل النادر من لا يوفقون فى التدريس الجامعى مع علو أقدارهم فى البحث والتأليف ، فهم من القلة بحيث لا ينبغى أن تتخذ منهم قاعدة عامة تندرج على الجميع . وأرى بهذه المناسبة أن تحتم الجامعة على كل من يتأهب للتدريس بها ممن يجدون من أبنائها المتخرجين ، أن يدرسوا مبادئ التربية والطرق الخاصة ،

وعلم النفس دراسة مستوعبة ، لتنعدم الهوة الجاثمة بين البحث والتدريس لدى القلة الضئيلة من الجامعيين ، وإني لأعجب كيف يكون المدرس فى التعليم الثانوى والابتدائى متخرجا من معهد التربية العالى للمعلمين ، ولا يكون المدرس الجامعى مشاركا له فى الدراسة بهذا المعهد الممتاز ، إذ أنه يواجه من مشاكل الشباب ومتاعبه وانحرافاته مثل ما يواجهه المدرس الابتدائى من مشاكل الطفولة ، والمدرس الثانوى من مشاكل المراهقة ، وجميع هذه المشاكل تدرس بتوسع مفيد فى معاهد التربية العالية ، ولن تغنى عنها الدكتوراه أو الماجستير فى شئ ، فلم لا نلتفت إلى هذا النقص الخطير ؟

وتأتى النقطة الثانية فنعلن أن الخوف من التكرار والتفاهة فى الأبحاث العلمية لا يجد مبررا يستند إليه ، فهذه البحوث تقدم إلى هيئة عالية محترمة ، تعرف الجيد من الردئ ، وتميز بين من يسلك النهج المنطقى فى العرض والاستقراء والاستنباط ، ويعمد إلى المشكلات الناضجة فيزيل خفاءها ويكشف إبهامها ، ويأتى بجديد يصحح فكرة خاطئة ، أو يغير وضعا فاسدا ؛ أجل ! هذه الهيئة المحترمة العالية تميز بين هذا الباحث الضليع ، وبين من يخبط فى بحوثه السقيمة خبط عشواء ، فيجمع إلى التفاهة والتكرار فساد المنطق ، وضعف التفكير ، ومتى كانت الموازنة عادلة صادقة ، فلا خوف على الدرجات الجامعية أن ينالها غير الأكفاء الناهضين ، ولن يغضب إنسان ما من كثرة الأبحاث وتنوع المؤلفات ، لأن الزبد يذهب جفاء ، بل ربما كان البحث المضطرب التافه سلما إلى البحث المتدل الأصيل ، ولا يزال السائر فى الظلام يتخبط فى المجاهل والدروب حتى يشرق عليه الصباح الباهر فيهتدى إلى الطريق

أما ما يدعونه من جحود الكشف العلمى الجديد ، وعدم الالتفات إليه لدى الترقية من درجة إلى درجة ، فهذا لا ينبغى أن يقنع به أحد ، إذ أن الكشف العلمى — مع تشوقنا إليه — من الندرة والقلة بحيث لا يصلح أن يكون قاعدة جامعية عامة تطبق على الأساتذة والمدرسين لدى الترقيات ، فإذا وفق الله عبقريا جامعيا ، وخرج على الناس بكشف يزيد من سطور الحضارة ، ويضع لبنة فى صرح العلم ، فالجامعة إذذاك تقدره حق قدره ، وتجعله استثناء ممتازا للقاعدة التى تسير عليها دون أن يعترض عليها إنسان ، بل إن مكافأته الطيبة لن تقتصر على الجامعة وحدها ، بل تنتقل إلى الأوساط العلمية التى تشيد بالكفاح الذهنى وتحنى رأسها للدأب والنبوغ

إن البحوث العلمية ميزان عادل للترقية فى الجامعة ، وهى التى تدفع المدرسين إلى العمل الثمر ، وتقطع عليهم طريق التثاؤب والخمول ، وإذا وجد مدرس يتمتع بالبراعة فى التدريس دون أن يجيد البحث العلمى ، فمن الإنصاف لنفسه أن يظل مدرسا لا يرقى إلى الأستاذية بحال ، إذ أن الأستاذ الجامعى فى موضع جليل الخطر ، عظيم المهابة ، فيجب أن يمارس البحث الدائب ، والعمل الناطق ، وبغير هذه البحوث المتواصلة لن ترقى جامعة ، أو يتقدم شعب يعتمد على التربية الصحيحة ليشق طريقه فى ميدان الحياة

محمد رجب البيومى

دفاع عن البلاغة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

كتاب يعرض قضية البلاغة العربية أجمل معرض ويدافع عنها أبلغ دفاع فيذكر أسباب التنكر للبلاغة ، والعلاقة بين الطبع والصنعة ، وحد البلاغة ، وآلة البلاغة ... الخ

من فصوله المبتكرة : الذوق ، والأسلوب ، والمذهب الكتابى المعاصر وزعماؤه وأتباعه ، ودعاة العامية ، ودعاة الرمزية ، وموقف البلاغة من هؤلاء وأولئك ... الخ

يقع فى ١٩٤ صفحة وثمنه خمسة عشر قرشاً عدا أجرة البريد